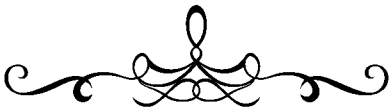

"سنان" العظيم كبير معماريي العالم

إن تاريخ ميلاد المِعمار "سنان" ليس جليّا بشكل قطعي، لكنّ أرجح الروايات في هذا الصدد أنه وُلِد عام (١٤٩٥م) أو بعد ذلك بسنوات، إذ يُعتقد أنّه انضمّ إلى الدوشيرمه [٥٥] ما بين عامي (١٥١٢-١٥١٤م)، حيث إنّ انضمام الأطفال إلى الدوشيرمه يكون في سنّ محددةٍ لا يسمح بتجاوزه، فيكون القول بميلاده في قرية "أغرناس" التابعة لمدينة "قيصري" حوالي عام (١٤٩٥م) في عهد السلطان "بايزيد الثاني" هو الأقرب إلى الصواب[٥٦].

وفي عام (١٥١٢م) أُخذ من أسرته وهو في السابعة عشرة من العمر إلى إسطنبول، وقد تحدّث في السنوات اللاحقة عن أنه كان سببًا في هداية أخيه الصغير، وهو ما يشير إلى أنّه كان طفلًا لأسرة مسيحيّة، وتزعمُ الغالبيّة العظمى من المصادر أنّه ألبانيُّ الأصل.

(٥٥) "دوشيرمه (*Devşirme*)" مصطلح عسكري وإداري، كان يطلق على أطفال المسيحيين الذين يتم جمعهم من البلدان المسيحيّة للعمل في السراي وجيش الإنكشاريّة، وكان يتم اختيارهم من سن (٨-١٨) سنة من أُسَر محترمة؛ ولا يؤخذ الأتراك والمسلمون واللقطاء؛ وكان يشترط فيهم حسن الخلق والمظهر العام، وكان لها قانون عام يعرف بقانون الدوشيرمه يتعلق بشروط جمع الأطفال كتجنب أخذ الغلام الوحيد، والمتزوج.

(٥٦) كاظم شيشان، منشآت معمار سنان وكركجشمه، إسطنبول ١٩٨٨م ص ٣٤.

كان يتـمّ تجميـع الدوشـيرمه مـن منطقة الروملي فقـط إلى أن اعتلى السلطان "ياووز سليم" العرش عام (١٥١٢م)، إذ جُمعت الدوشيرمة ذلك العام من وسـط الأناضول أيضًا، وقد جمـع الأطفال من منطقة "قيصري" أيضًا بموجب التعليمات.

بعـد أن جُلب "سـنان" إلى إسـطنبول تلقى تعليمًا مميّـزًا مدّة طويلة، فالتحق بمدرسـة العجم هناك، ثم بقسـم النجارة في المدرسة نفسها، ولم يكن العاملون يُسـجّلون بـمعسـكر الإنكشـاريّة قبل مرور سـبع أو ثماني سنوات على الأقلّ.

ساق الفرجار الثابتة

عمـل "سـنان" فـي تشـييد الآثـار المعماريّـة كالجوامـع والخانـات والحمَّامـات ومياه السـبيل بإشـراف حِرَفيّيـن مهرة، فخطَـا أولى خطواته في مهنته هذه.

فـي أثناء ذهابه إلى "جالديـران (*Çaldıran*)" عام (١٥١٤م) إنضم إلى "عجمـي أوغلانلر" [٥٧] ضمن جيش السـلطان "ياووز"، شـاهد الأناضول طـوال سـفره، ووجد الفرصـة كلّما اسـتراح الجيش في المناطـق المهمّة ليتفحـص كثيرًا من الآثار المعماريّة، وصادف مباني كثيرة جدًّا بُنيت على طُرُز مختلفة في إيران بعد فتح تبريز[٥٨].

(٥٧) عجمي أوغلانلر: الأطفال العجم الذين يتم جلبهم من الدوشيرمه أو من الأسرى بغية استخدامهم في الجيش الإنكشاري، وكانوا يقومون بتنظيف الثكنات وتقديم الخدمات والأعمال الميريّة.

(٥٨) تبريز: هي إحدى أهم وأبرز المدن في إيران وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيّة.

أمّا في أثناء الحملة على مصر عام (١٥١٧م) فقد تحرّى دراسة أكبر قدر من الآثار الإسلاميّة العتيقة، وتجوّل بمنطقة الأهرام.

يوجز "سنان" تلك الواقعة في كتابه "تذكرة البنيان" على النحو الآتي:

> ''بفضل خلقتي الجميلة من بين أطفال مدرسة "عجمي أوغلانلر"، ولعتُ بحرفة النجارة، وعملتُ في خدمة معلّمي بحزم كساق الفرجار الثابتة تمامًا، فراقبت منطقتي وما حولها، ثمّ اهتممت بالتجوال في البلاد الأخرى كساق الفرجار المتحركة أيضًا، فجلْتُ وطفْتُ بلادَ العرب والعجمِ خلال خدمتي للسلطان، فما تركتُ زاويةً عاليةً ولا تكيّة خربة إلا طفت بها وتجوّلت، ثمّ عدت إلى إسطنبول''[٥٩].

ثلاثُ سفنٍ من نوع "القادرغه" [٦٠] على ساحل بحيرة "فان"

سُجِّل اسم "سنان" في معسكر الإنكشاريّة في السنوات الأولى من حكم السلطان "سليمان"، واشترك بحملتي "بلجراد" عام (١٥٢١م) و"رودوس" عام (١٥٢٢م)، وعام (١٥٢٦م) اشترك في حرب ميدان "موهاج" جنديًّا في كتيبة الفرسان "آتلي سكبان" المسمّاة بسلاح الفرسان في عهد الإنكشاريّة، وبفضل اجتهاده وما بذله من جهد فائق في تلك الحرب، لُقِّب بـ"زَمْبَرَكْجِي باشي"[٦١]، وفي أثناء حصار "فيينّا" عام (١٥٢٩م) عمل في مشروع لتحويل بعض كنائس "بودين" إلى جوامع.

(٥٩) ساعي مصطفى شلبي، "تذكرة البنيان" بلغتنا المعاصرة، إسطنبول ٢٠٠٢م ص ٣٩.

(٦٠) القادرغه: نوع من السفن في الأسطول العثماني، وكان أكبرها؛ ولكل واحدة منه خمسة وعشرين مقعدًا وتسعة وأربعين مجدافًا، يحرك المجداف الواحد أربعة أشخاص أو خمسة... كانت تعمل بالمجداف والشراع، وتحمل الواحدة منها مدفعيّة كبيرة وأربعًا وسطى وثمانيَ صغيرةً. سهيل صابان: ص ١٧٢.

(٦١) أي: رئيس حَمَلة السهام.

عندما وصل الجيش ساحل بحيرة "فان" أثناء حملة إيران عام (١٥٣٣م) أراد الوزير "لطفي باشا" معرفة حالة جنود العدوّ بالضفة الأخرى من البحيرة، وكان من المفترض أن تُجتاز البحيرة بالسفن، لتتمّ عمليّة الاستكشاف، فاستدعى "سنان" وأمره بصنع عدّة سُفُن، ورغم نقص الآلات والموادّ إلا أنّ "سنانًا" نجحَ في صناعة ثلاث سُفُن في وقت قياسيّ؛ فعُهد إليه بتولي قيادتها، وقد أدّى تلك المهمّة أيضًا على أكمل وجه، وأنجز مهمّة الاستكشاف وعاد أدراجه، ورُقّي لذلك النجاح إلى رتبة "خاصكي"[٦٢].

وتُروى تلك الواقعة في كتاب "تذكرة البنيان" على النحو التالي:

> ''أمر الوزير "لطفي باشا" على نحوٍ صارم بالعمل قائلًا: اصنع عدّة سفن، ورغم عدم توفّر الأدوات والموادّ اللازمة لصناعة السفن بسبب الحرب، فقد شمّرتُ أنا ورفقائي عن سواعدنا، وصنعنا بفضل الله ثلاث سفن حربيّة -قادرغه- في وقت قصير، فأعددنا أشرعتها ومرساتها ومجاديفها وجهزناها باللوازم الحربيّة، وحينما أمر الوزير قائلًا: تولّ أنت قيادتَها؛ أبحرتُ أنا وزملائي استجابةً لأمره، وعلِمْنا حالة جنود العدو، فسُرّ أشدّ السرور، ومدح هذا الفقير''[٦٣].

هل يُهتم بالجسر إلى هذه الدرجة؟

نرى "سنانًا" على أسطول "باربروس" في حملة "كورفو"[٦٤] عام

(٦٢) كلمة خاصكي: لقبٌ فخري يُطلَق على من تقدم به العمر في وظيفة معينة، وكان يُطلَقُ على أصحاب المناصب القديمة في مختلف وظائف المؤسسات الحكومة لتربية وتنشئة الموظفين لدوائر الدولة.

(٦٣) ساعي مصطفى شلبي، المصدر السابق، ص ٤٠.

(٦٤) كورفو: جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا حيث يفصلها عن ألبانيا اثنين كيلومتر.

(١٥٣٧م)، وأُتيحت له في تلك الحملة الفرصةُ لتقصّي الآثار المعمارية على سواحل إيطاليا، وفي المدّة نفسها رُقّي إلى رتبة ضابطٍ بحريّ لخِدْماته الجليلة.

وفي الحادي والثلاثين من أغسطس/آب عام (١٥٣٨م) اتّجه السلطان "القانونيّ" بحملة على "قره بوغدان (مولدوفا)"، وعند وصولهم ساحل نهر "باروت" كان لا بدّ من جسرٍ لعبور الجيش إلى الجهة المقابلة؛ فبذل المعماريون كلّ ما بوسعهم لإنشاء جسرٍ، وعملوا أيامًا إلا أنّ الجسر لم يصمد وهوى بعد مدّة قصيرة في الوحل، فأعيتهم الحيل وعجزوا عن بنائه؛ لأنّ المنطقة عبارة عن مستنقع، فرشّح الوزير "لطفي باشا" "سنانًا" للسلطان قائلًا:

- مولاي السلطان، يمكن بناء هذا الجسر لو تولى أمره خادمكم الضابط البحري المدعو سنانًا، فلتأمر، وليتولَّ العمل مع رفقائه، فهو معماريٌّ حاذقٌ وماهرٌ جدًّا.

بناء على اقتراح الباشا؛ تمّ تكليف "سنان" ببناء الجسر بأمر من السلطان "القانونيّ"، ورغم أنّ الأرض كانت مستنقعًا، إلا أنّه استطاع أن ينال إعجاب السلطان ببنائه جسرًا سليمًا على متنِ "نهر باروت" في مدّة قصيرةٍ لم تتجاوز ثلاثة عشر يومًا.

بعد عبور الجيش، أبدى "لطفي باشا" اهتمامًا كبيرًا بالجسر، فاقترح على الصدر الأعظم قائلًا:

- هلَّا نبني برجًا لحماية هذا الجسر العظيم، ونكلّف مجموعةً من الجنود لحمايته لكيلا يحطّمه الكفّار بعد رحيلنا!

فسأل الصدر الأعظمُ "إياس باشا" "سنانًا" عن اقتراح "لطفي باشا":

- يفكّر "لطفي باشا" بإنشاء قلعة بجوار الجسر لحمايته من الأعداء، فما قولك يا "سنان"؟.

فردّ "سنان" بذلك الجواب التاريخيّ:

- هذا رأيٌ غيرُ مناسبٍ قطعًا، فلو اقتحم الكفار واستحوذوا على البرج ببضعة رجال، فسيعدّون أنفسهم قد سيطروا على القلعة، فلا ينبغي لنا أن نولي الجسر اهتمامًا أكثر من اللازم، علمًا أنّ من الممكن إنشاء جسر جديدٍ في دولة مولاي السلطان أينما ومتى لزم الأمر.

كان "صوفي محمد باشا" -أمير أمراء روملي- آنذاك في مؤخّرة الجيش، وأراد الصدر الأعظم استشارته حول مسألة الجسر، فانتظره إلى أن جاء، ولما طُرِحَ عليه الموضوع لخّص رأيه بشأن الجسر قائلًا:

- قديمًا أحرق العثمانيّون سفنهم بعد أن عبروا روملي، فكيف نبني نحن برجًا يتّخذه أعداؤنا ملجأً لهم، فينبغي أن نهدمَ جسرنا بأنفسنا.

وهكذا رضيَ المعمار الشهير بتغييبِ إنجازه، وتدمير عمله ليحفظ كرامةَ الدولة.

مساجد في قمة الروعة

تُوفي نقيب المعماريّين "عجم علي -علاء الدين علي بك-"، وبعده بقليل في الثالث عشر من يوليو/تموز (١٥٣٩م) تُوفي الصدر الأعظم "إياس باشا"، وتولى الوزير "لطفي باشا" منصب الصدر الأعظم، وحارَ

(مجمّع وجامع "خسرو باشا" في حلب)

رجال الدولة حينئذ في إنشاء ضريح يليق بـ"إياس باشا"، وأعربوا عن حزنهم قائلين:

- فقدنا كبير المعماريين، يا ليت لنا معمارًا مثله في علمه وكفاءته!

فقال الصدر الأعظم "لطفي باشا":

- أرى أن "سنان باشا" الذي هو كبير موظفي القصر هو أجدر الناس بمنصب كبير المعماريين.

فدعا آغا الإنكشاريّة "سنانًا"، وقال:

- قرّر الباشا تعيينك نقيبًا للمعماريين، والأمر إليك، فما رأيك؟

ويعرب "سنان" عن جوابه في "تذكرة البنيان" بقوله:

"شعرتُ بالضيق، وقلتُ: لقد استاء منّي "لطفي باشا" لأنّي خالفت رأيه، وتصرّفت على نقيضه في مسألة الجسر، فتوجستُ منه خيفةً لأنه ربما يتحيّنُ فرصةً لإيذائي، لكنّ حكمة الله سارية، فلم يحدث ما كنتُ أخشاه، ورغم أنّ فكرة الانفصال عن معسكر الإنكشاريّة كانت مؤلمة، إلا أنّني قبلت المنصب في النهاية مفكرًا بتشييد عدّة جوامع ومساجد، وأنّها ستكون وسيلة للفوز بالدنيا والآخرة".

وقد ترقّى المعمار سنان إلى منصب نقيب المعماريين وهو في الرابع وأربعون من عمره، وتحقّقت له في حياته مآربه حيث شيّد مساجد رائعة من حيث البناء.

ونُقِشَ على خاتم سنان عبارة:

"الفقير سنان، نقيب المعماريين الخواصّ".

(صورة توضيحيّة للقباب الدائريّة التي يكمّل بعضها بعضًا،
الْتُقطت من داخل جامع "شهزاده محمد")

أما بعد أن ذاعت شهرته فأصبح نَقْشُ خاتمه:

"نقيب معماريّي ومهندسي العالم".

وبعد أن قام ببناء السليميّة، اشتهر بـ"ممدوح العالم، المعمار الفريد سنان آغا"(٦٥).

ويعتبر مجمع "خسرو باشا" -المشيد على اسم خسرو باشا- في حلب عام (١٥٣٧م) من أهم المساجد التى تجذب الاهتمام بشدّة لكونه أول الآثار العِماريّة لـ "سنان" قبل تعيينه نقيبًا للمعماريّين.

بعد عام من تولّيه الوظيفة -عام (١٥٤٠م)- كلفته السلطانة "خُرَّم" زوج السلطان "سليمان القانونيّ" بتشييد مجمّع "الخاصكي" المكوّن من جامع ومدرسة وكُتّاب -مدرسة أطفال- وتكيّة ومستشفى، وكان هذا أول عمل ينجزه بصفته نقيب المعماريين، ولقد حمل هذا المبنى عناصر ثقافة العمارة العثمانيّة المتأصّلة في نفس سنان من ناحية، واحتوى من ناحية أخرى على أولى لمساته المعماريّة الخاصّة به(٦٦).

وفي عام (١٥٤٢م) بدأ بإنشاء مجمّع باسم السلطانة ابنة السلطان "القانونيّ"، وهو مجمع السلطانة "مِهْرِماه" بحيّ "أسكودار"، وهو يتألَّفُ من جامع -يُعدّ أحد معالم أسكودار المهمّة- ومدرسة وكُتّاب وحمّام ودار للمُسنّين وتكيّة ونُزُل ولم يتبقَّ منه إلى الآن إلا الجامع والمدرسة فقط(٦٧).

(٦٥) شيشيان، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٦٦) تورغت جان سوار، معمار سنان، إسطنبول ٢٠٠٥م، ص ١١٣.

(٦٧) جان سوار، ص ١٢١.

جامع "شهزاده محمد" هو عمله التدريبي

بينما أوشك مجمّع السلطانة "مهرماه" أن ينتهي، قرّر السلطان "القانونيّ" بناء جامع باسمه يليق بمجده، وفي ذلك الوقت فقد السلطان ولده العزيز "شهزاده محمد" في الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٥٤٣م) على إثر مرض مزمن، فغيّر وِجهته في بناء الجامع وسمّاه باسم فقيده، وتقرّر بناء الجامع على ربوة وسط قطعة أرض منبسطة تحاذي الخليج من الحدود الغربيّة لـ "إسكي سراي" حتى الحدود الغربيّة لشبه الجزيرة، أمام حيّ "إسكي أوده لر" [٦٨]، هذا الموقع الجغرافيّ المتميّز بين مسجدي "آيا صوفيا" والفاتح أضفى جمالًا بارعًا ورونقًا خاصّا لهذا الجامع[٦٩].

افتُتح هذا الجامع عام (١٥٤٧م)، وبلغت تكلفته خمسة عشر مليون آقجة[٧٠]، وكان سنان يصف مدّة عمله هذه بأنّها مدّة تدريب وتعليم وتحصيل.

أكثر سمة تلفت الانتباه في جامع "شهزاده" أنّه من طراز القباب الدائريّة التي يُكمّل بعضُها بعضًا والتي لم تُعرَف في الآثار العثمانيّة القديمة إلى أن جاء سنان وطور فن العمارة والبناء[٧١].

(٦٨) إسكي أوده لر: هي الساحة الممتدة أمام جامع "شهزاده باشا" من بنايّة بلديّة "بيوك شهر" حتى حمام "عجم أوغلو"، وكانت تتواجد في تلك الساحة الثكنات التابعة للإنكشاريّة.

(٦٩) جان سوار، ص ١٣٧.

(٧٠) الآقجة: هي نوع من أنواع النقود في العصر العثماني، وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضُربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان عام (٧٢٩هـ) (سهيل صابان، ص ٢١).

(٧١) جان سوار، ص ١٤٣.

مجمع السليمانيّة:

أراد السلطان "القانونيّ" تشييدَ مجمّعٍ عظيمٍ يملأ صِيتُه العالم، فاستدعى المعمار "سنانًا" فور انتهائه من مجمع شهزاده محمد (الأمير محمد)، فسارع "سنان" متحّينًا يوم جمعة فجاء موافقًا للثالث عشر من يونيو/جزيران عام (١٥٥٠م)، وفعلًا بعد أن ذُبحت الذبائح، ووزعت صدقات كبرى بين الصالحين والفقراء والمحتاجين؛ وحضر الحفل رجالُ الدولة، وعلى رأسهم السلطان "سليمان"، وجمعٌ غفيرٌ من الناس؛ وَضع حجرَ الأساس شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي".

إنّه لَقرار عبقري من "المعمار سنان" أن يُنشئ مجمّع "السليمانيّة" على حافّة التلّ المطلّ على سواحل الخليج، ويُرى منه قصر "طوب قابي"، و"البوسفور"، وجزء من بحر "مرمرة" أيضًا، هذا الاختيار الأمثل جعل السليمانيّة مَعْلمًا مهمًا من معالم المدينة، وأتاح رؤية روعتها من مناطق كثيرة جدًّا.

أنت أحقّ بافتتاح بيت من بيوت الله

لما اكتمل بناء القبّة العظيمة للجامع المبارك وأروقته، نَقَش كبير الخطاطين "حسن قره حصاري" على قبّتِهِ الشبيهةِ بالسماء آية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا**﴾(٧٢) بخطّ غاية في الإحكام والجمال، ونقش خطوطًا فريدة على أبوابٍ حُقّ لها أن تكون أبوابًا للفردوس(٧٣).

(٧٢) سورة فاطر: ٣٥ /٤١.

(٧٣) ساعي مصطفى شلبي، ص ٦٦.

يصف سنان افتتاحَ جامع السليمانيّة في كتابه "تذكرة البنيان" قائلًا:

''غادر السلطان قصرَه يوم الجمعة الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول عام (١٥٥٧م)، وطلت طلعته البهيّة، فسلَّمتُه بيده النبيلة الميمونة مفاتيح الجامع المبارك وأنا أبتهل إلى الله، دعوتُ وأسبلْتُ يديّ احترامًا، وانتظرت، فالتفت صاحب السعادة إلى "أوضه باشي"(٧٤) فورًا وقال:

- مَن الأولى والأحقّ بفتح باب الجامع؟

فأجاب مدير المراسم:

- مولاي السلطان، خادمكم "سنان" شيخ جليل، وقد بذل في هذا الأمر أقصى الجهد، كأنّه "لقمان الحكيم" في همّته.

فقال مولانا السلطان:

- أخي العزيز، أقبل، فمن الأفضلِ أن تفتتح أنت بيتَ الله بالإخلاص والدعاء والتضرّع إليه.

وأعطاني المفتاح وراح يدعو لي ويثني عليّ.

فتحتُ الباب قائلًا:

- يا فتّاح!

ونلتُ من السلطان إحسانًا ورعاية لا يُوصفان''.

أخّاذ أكثر من "آيا صوفيا"

اكتسب سنان خلال تشييد جامع السليمانية خبرة واسعة، حيث تلافى فيها ما وقع في "آيا صوفيا" من قصور، وقد شغلت "آيا صوفيا" موقعًا جغرافيًّا متميزًا عند شبه جزيرةٍ وِجهتُها نحو الشرق، ورغم ذلك كان فيها نقاط ضعف هندسيّة وبنائيّة وعِماريّة لا تتفق مع موقعها الجغرافيّ،

(٧٤) ضابط في تشكيل الإنكشاريّة، كانت وظيفته تنظيم وتوجيه المراسم الاحتفاليّة في المواكب.

وفي سبيل تجاوز نقاط الضعف تلك تَمَّ تدعيمها في مطلع القرن الخامس عشر بحائط أقامه معماريون عثمانيّون تمّ استدعاؤهم من أدرنه، وما يزال "آيا صوفيا" قائمًا إلى يومنا هذا بفضل دعائم عظيمة أنشأها "سنان"(٧٥).

لقد صنع "سنان" منظرًا مشرقًا وفسيحًا مستغلًّا الإضاءة الطبيعيّة بوفرةٍ في أروقة السليمانيّة، فبنى مسجدًا مفعمًا بالحياة يقدّم لمن يدخله السعادة ونشوة الحياة، بخلاف "آيا صوفيا"؛ فضوؤها خافت معتم قليلًا.

عندما زار "تشارلز ديهل (*Charles Diehl*)" العالِم البيزنطيّ الشهير جامع السليمانيّة، لم يستطع أن يتمالك نفسه، وقال:

> ''عظمة فريدٌ نوعُها، ومقدرة خارقة، إنّ للسليمانيّة سحرًا يفوق "آيا صوفيا"''(٧٦).

قنوات مائية

قُدّر عدد سكّان إسطنبول في نهاية عهد السلطان "الفاتح" بمائة ألف نسمة، وفي عهد السلطان "القانونيّ" ارتفع هذا العدد إلى ما يقرب من مائة وستّين إلى مائة وسبعين ألف نسمة، ومع زيادة عدد سكان إسطنبول بهذا الشكل الهائل لم تعد مياه العيون والآبار كافية، وظهرت بوادر أزمة المياه في المدينة، وقلّت أيضًا مياه "قيرق جشمه"(٧٧) القديمة منذ العصر الرومانيّ، وقد أعيد تشغيلها بعدما أصلحها السلطان الفاتح، حتى إنها مع العيون الأخرى لم تعد تكفي.

بينما كان السلطان القانونيّ يتنزّه قربَ منطقة "كاغد خانه" أثناء

(٧٥) جان سوار، ص ٢١٥.

(٧٦) أنييس كورتان، مكانة معمار سنان في العمارة التركية والعالمية، ص ٨.

(٧٧) أربعون صنبورا.

الصيد، لمح مياهًا تنضح من قناة مائية قديمة، فبدأ يبحث عن إمكانيّة سحب المياه من تلك المنطقة إلى إسطنبول، فشكّل اللجان وحصل على معلومات حول كيفيّة سحب المياه إلى إسطنبول قديمًا، وفي ضوء ذلك عُهد إلى المعماري "سنان" بتلك المهمّة.

بعد أن تفحص المعماري "سنان" المياه والقنوات المائية القادمة من "غابة بلجراد"، أبلغ السلطان بإمكانيّة سحب المياه منها إلى إسطنبول؛ فأمر السلطان بإنشاء القنوات فورًا، وجمع بين يدي سنان أمهرَ الحرفيّين والمتقنين لهذا العمل آنذاك وذلك للعمل تحت إشرافه(٧٨).

يروي "سنان" تلك الواقعة في كتابه "تذكرة البنيان" على النحو التالي:

"قال السلطان صاحب السعادة:

- لكل صنعة خبيرها، فلا بدّ أن نستشير رئيس المعماريين في هذا العمل، وعلينا التنفيذ لا التخطيط.

وأصدر أوامره لهذا العبد الضعيف:

- أريدك أن تستهدف وصول الماء إلى إسطنبول، وتبذل كلّ عناية به، وتنتهي من القيام بهذا العمل الخيّر منقطع النظير.

وهكذا كلّف خادمه هذا بإنشاء القنوات المائيّة"(٧٩).

وفي وقت آخر سأل السلطان "سليمان" خان المعمار "سنانًا":

- كيف يمكن سحب هذه المياه؟

(٧٨) شيشيان، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٧٩) ساعي مصطفى شلبي، المصدر السابق، ص ٤٧.

- مولاي السلطان، يكمن تحقيق هذا العمل بطريقتين:

إحداهما: أن يكون العمل تطوّعيًّا بأمر صارمٍ من سيادتكم.

ثانيتهما: أن تعطوا كلّ شخص أجره، وتخصّصوا مزيدًا من المال للعمال، ولا يضرّكم كثرة الإنفاق على هذا الأمر!

أجاب السلطان:

- دعنا من الإِجْراء الأول؛ فالثاني هو الأنسب، وهذا العمل سيتمّ مقابل أجر من مالي الخاصّ، ولن يُبخس أحد مثقال ذرّة من حقّه(٨٠).

كانت الجسور أولى أعمال "سنان" الهندسيّة، فشيد مرافق المياه قبل بناء قناطر المياه لـ"قيرق جشمه"، وفي أثناء شروعه في البناء قال للسلطان:

- مولاي السلطان صاحب السعادة، إنّ لعبدكم الفقير تصورًا خاصًّا بإنشاء القنوات المائيّة، فلا داعي للقلق حيال ذلك، وإنني على ثقةٍ تامّةٍ أنه سينال إعجابكم.

بدأ البناء، وانتشرت معه شائعاتٌ عدّة، فسعى بعض الناس إلى إثناء السلطان عن قراره مدعين أنّ "سنانًا" لن يستطيع القيام بهذه المهمة، وأنّ النقود ستذهب سُدًى، وأنّ الماء الذي سيجلبه سنان من خلال بناء الجسور ليس كافيًا ويستحيل وصوله إلى إسطنبول.

وقتئذٍ قال أحد حُسّاد المعمار:

- مولاي السلطان، "سنان" لا يبني سدًّا، وإنما يبني أحواضًا صغيرة ليسلي فؤاده، ويتلهّى بإحضار الماء من هنا ليفرغه هناك.

(٨٠) شيشيان، المصدر السابق، ص ٣٧.

ضاق صدر السلطان "القانونيّ" جدًّا بهذا الحديث، وذهب إلى المكان الذى ينشأ فيه القنوات المائية مع ثلة قليلة من الناس، وعندما وصل إليها كان "سنان" بالفعل مشغولًا ببناء أحواض صغيرة، فسأله محتدًّا:

- ماذا تفعل؟

- أحسب مدى قدرة الجدران على حمل المياه يا مولاي.

وأظهر "سنان" أدوات اخترعها لحساب قوّة ضغط المياه، فهدأ السلطان قليلًا، لكنّه لم يقتنع، فسأله مجدّدًا:

- حسنًا، أين المياه المطلوبة؟ هيّا، أرني!

فانطلق "سنان" يشرح للسلطان خطوات هذا المشروع، وحينما رأى السلطان تجمُّع المياه بوفرةٍ هنالك وانسيابَ الماء الزلال شديد النقاء، تهلّلت أساريره وهدأ، وأمر المحيطين به بإلباس سنان الحلّة السلطانيّة، ثمّ أصدر أمره قائلًا:

- أنزلوا أقسى العقاب بأولئك المفترين!

وأسرع سنان ليشفع قائلًا:

- مولاي السلطان، فلنتركهم لكيلا يتلطّخ ذلك العمل الخيريّ بالدم، وليظلّ هذا الماء طاهرًا.

هكذا صفح "سنانٌ" عن حسّاده ومبغضيه بكل شهامةٍ ورحابة صدرٍ.

خمسون مليون آقجة

بدأ إنشاء قناطر "قيرق جشمه" عام (١٥٥٤م) واستمرّ العملُ فيها

تسع سنوات لينتهي إنشاؤها تماما عام (١٥٦٣م)، وقد تكلّف هذا الإنشاء ما يزيد عن خمسين مليون آقجة، وخلال الأعوام نفسها كان "سنان" يشرف على إنشاءات كثيرة جدًّا منها جامع "السليمانيّة"، وإذا ما وازنّا بين ما أُنفق على جامع السليمانيّة وملحقاته وبين ما أُنفق على مشروع "قيرق جشمه"، ظهر لنا أن الأول أقلّ من الثاني بنسبة ٣٠٪.

أما من حيث حجم العمل المنجَز، فيُعدّ ذلك الإنشاء أعظم ما حقّقه "سنان"، وكان طول خطوط الأنابيب تصل إلى خمسة وخمسين ألفًا وثلاثمائة وأربعة وسبعين مترًا بالإضافةِ إلى ثلاثةٍ وثلاثين جسرًا مائيًا (قنطرة) على خطّ المجرى.

وأكثر هذه القناطر المائيّة أهميّة من الناحية الهندسيّة والعِماريّة هو قنطرة "ماغلوفا"، ومن القناطر التذكاريّة أيضًا قنطرة "أوزون" (٧١١م)، وقنطرة "كوزلجه"، وقنطرة "الباشا".

علاوة على ذلك، تمّ إقامة أربعة سدود على المجاري المائيّة أطلق عليها "قارانلق بنت"، "بيوك بنت"، "قيرازلي بنت"، و"أيواد"، ومن تلك المنشأة تمّ إقامة ما يزيد على ثلاثمائة صنبور تُلبّي حاجة المدينة من الماء.

جسر "ماغلوفا *(Mağlova)*"

يبدو لنا المقطع العرضي لجسر "ماغلوفا" كجذع شجرة، فهو بنيّة مخروطيّة، هذه الهيئة تُجسّد أفضل طريقةٍ لمواجهة أضرار الزلازل، وقوة الرياح، وقوة تدفق المياه؛ فسلامة هيكل الجسر ومتانته ليست محلّ نقاش، إذ تبرهن على نفسها بنفسها، أما ما نريد أن نؤكّده، فأنّ الجسر

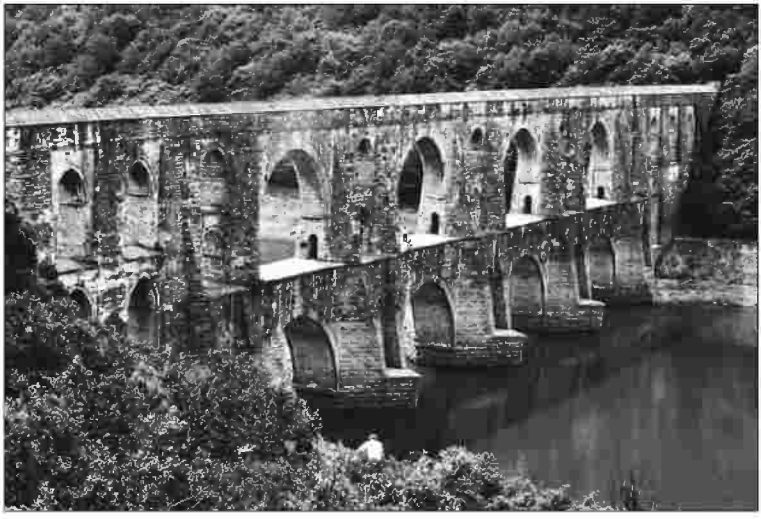

(جسر ماغلوفا الذي بُنيَ بين عامَي(١٥٥٤/١٥٦٢م) على وادي "علي بك"
في إسطنبول، بالقرب من حي السلطان غازي حاليًا)

كلّه مصمّمٌ على طرازٍ سليمٍ من الناحية الهندسيّة، واتخذت قواعده شكل مقدمة سفينة تشقّ المياه، وتمّ تصميمه كتمثال له بنية ثلاثيّة الأبعاد.

يمتد الجسر بهذا النحو أمام الناظرين كأنه جسم جماليّ ديناميكيّ حيويّ، وخلاصة القول أنّ الجسر ليس مجرّد أداة وظيفيّة عمليّة فحسب، بل هو كيان جماليّ يؤدّي بنجاحٍ وظيفة جماليّة نفسيّة في الوقت نفسه[٨١].

بأمر من الرسول ﷺ

بعد وفاة السلطان "القانونيّ"، تولّى ابنه السلطان "سليم الثاني" (١٥٦٦م) العرش، وورث عن والده ثروة طائلة، فحثّه المقربون منه على بناء جامع جديد كبير، خاصّة بعد فتح اليمن وقبرص، وكان سنان باشا من بين هؤلاء الذين أشاروا على السلطان بذلك، وكان التفكير المبدئيّ لديهم هو إنشاء مجمّعٍ بإسطنبول يحاكي عظمة مجمّع السليمانيّة الذي أمر بإنشائه السلطان "القانونيّ"، لكن لم يتمكّنوا من العثور على مكانٍ مناسبٍ.

وقتئذٍ بدأت فكرة بناء جامع أكبر من "آيا صوفيا" تداعب أحلام السلطان "سليم"، وفي حين كان "سنان" يبحث عن مكان مناسب للجامع، استدعاه السلطان، وأبلغه بأنّه رأى سيدنا الرسول ﷺ في منامه، وأمره بإنشاء جامع باسمه في مدينة "أدرنه" والاستعداد لهذا الأمر.

عند مجيء السلطان إلى "أدرنه" بصحبة سنان رأى رؤيا أخرى مفادها أنّ سيدنا الرسول ﷺ يأمره قائلًا: ''شيد الجامع بميدان "قواق"، فذُبحت

(٨١) كورتان، المصدر السابق، ص ٨.

(جامع السليميّة في أدرنه)

مئات الذبائح، وحُفر أساس الجامع مصحوبًا بالدعوات وتلاوة القرآن، ووُضع حجر الأساس(٨٢).

يقول سنان في "تذكرة البنيان" أيضًا عن جامع "السليميّة":

"كان المعماريّون الغربيّون يفتخرون قائلين: لنا الغلبة على المسلمين، فلم تُبن قبّة في الدولة الإسلاميّة مثل قبة "آيا صوفيا"، وكانوا يزعمون أنّ من الصعوبة البالغة إقامة قبّة كبيرة بهذه الدرجة، ويقولون: ولو كان بإمكانهم عمل مثلها، لفعلوا هذا من قبل، كانت هذه الكلمات تؤلمني كثيرًا، وبفضل الله استطعت في عهد السلطان "سليم خان" تشييد تلك القبة العظيمة، أعلى من قبة "آيا صوفيا" بستّ أذرع، أما محيطها فأوسع بأربع أذرع"(٨٣).

بدأ تشييد جامع السليميّة عام (١٥٦٨م)، وعند الانتهاء من بنائه عام (١٥٧٤م) كان المعمار "سنان" قد بلغ الثمانين من عمره.

ثلاثمائة ألف فسيلة من الورود

في شهورٍ شارَف فيها بناءُ الجامع على الانتهاءِ، أنشأ سنان ما بين عشرة إلى خمس عشرة نزلًا في مدينة "أدرنه" حتى يكتمل المنظر العامّ للمدينة، علاوة على أنّه جلب ثلاثمائة ألف فسيلة من الورد من أدرنه لزرعها حول الجامع، واستأذن السلطان في شراءِ مائتي ألف فسيلة من زهور إسطنبول النادرة، وغرسها في فناء الجامع، ولقد كان توزيع الورود بين صفوف المصلين كل صباح يدل دلالة واضحة على العناية الفائقة بهذا العمل.

(٨٢) أندار بلار، جامع معمار سنان و جامع سليمية، أدرنه ١٩٩٤م ص ١٥ - ١٦.

(٨٣) ساعي مصطفى، المصدر السابق، ص ٨٩.

وعند النظر إلى مكان اختيار السليميّة، ندرك أنّ "سنانًا" لم يكن معمارًا فحسب، بل في الوقت نفسه كان ماهرًا متخصّصًا في تخطيط المدن.

كان "سنان" يعدّ السليميّة أكثر أعماله مثاليّة، ويطلق عليها "أثري الاحترافيّ"، إذ نجح في تغطية الساحة كلّها بقبّة واحدة فقط، وأنشأ أربع مآذن على الجوانب الأربعة للقبّة المركزيّة وجعلها قريبة جدًّا منها بحيث تبدو عند النظر إليها كأنها عمودية الشكل.

يكتب "أوليا شلبي" قائلًا:

> ''إن المسجد يشتمل على أربع مآذن كل مأذنةٍ لها ثلاث شرفات، هذه الشرفات تُكوّن اثني عشر طابقًا، وهي إشارةٌ إلى كونِ السلطان سليم الثاني هو السلطان الثاني عشر''.

لم يكرّر "سنان" تصميماته السابقة ولم يقلّد أو يحاكِ غيرَه، وأصبح بميزته تلك باحثًا مبتكرًا، يسعى في كلّ أثرٍ له إلى تحقيق التفوّق على سابقه، إلى أن نجحَ في ذلك.

فجامع "شهزاده محمد" قال عنه "سنان":

- بنيتُه في بدايةِ مرحلة التعليم والتحصيل.

وجامع "**السليمانيّة**" -الذي يتفوّق على سابقه- قال عنه "**سنان**":

- بنيتُه في مرحلةٍ متوسّطةٍ من الخبرة والمهارة.

وأما جامع "السليميّة" -الذي تفوّق على سابقَيه بسماتٍ بارزةٍ- فقد قال عنه "سنان":

- بنيتُه في مرحلة الذروة من المهارة والخبرة[٨٤].

السليميّة وشهادة "فرديناند"

جامع السليميّة شاهد على آثار بعض الكوارث في تاريخ أدرنه، فلقد استخدم البلغاريّون أثناء حرب البلقان عام (١٩١٢م) السلاح في الجامع، وأطلقوا النيران في داخله، مما أدى إلى إلحاق الضرر في الأماكن القريبة من قبّة المحراب، وفي القبّة الصغيرة جانب مقصورة السلطان.

وفي أثناء انسحاب الجيش البلغاريّ من أدرنه، قام بالتخطيط والتدابير اللازمة لتدمير السليميّة، فلمّا عُرض الأمر على قيصر البلغار "فرديناند" قال:

- كلّا، لا أستطيع أن أتحمل مسؤوليّة كهذه أمام التاريخ، ولا أستطيع أن أصدر أمرًا كهذا[٨٥].

وفاة "سنان" العظيم

توفي المعمار "سنان" كبير المعماريين في العالم في التاسع من أبريل/ نيسان عام (١٥٨٨م) عن عمر يناهز ثلاثة وتسعين عامًا، وضريحه يقع خلف جامع السليمانيّة، وتبلغ أعماله أربعمائة أثر، وهي ستّة وثلاثون ومائة جامع ومسجد، وسبع وخمسون مدرسة، وأضرحة مختلفة، ومقرأة ومستشفى وجسور مائيّة وينابيع وحمّامات وجسور ومستودعات وخانات وقصور وتكايا.

(٨٤) كورتان، المصدر السابق، ص ٩.

(٨٥) نريمان كولو أوغلي، جامع معمار سنان وجامع سليمية، أدرنه، ١٩٩٤م، ص ٢٧.

إنـه رجـل الدولـة العنيـد، والقائـد الذكـي الشـجاع، ذو العزيمـة والإقدام..

فاتح قلعة «أويوار» التي تُعدُّ من أبرز القلاع الغربية المحصّنة..

وهو القائد الذي استطاع فتح «كانديه» بعد أن حاصرها القوّاد من قبله طيلة اثنين وعشرين عامًا...

اعـترف المؤرّخـون المحليّون والأجانـب كلّهم بكونه واحدًا مـن أذكى وأفذّ الشخصيّات التي تقلّدت منصب الصدارة العظمى لدى العثمانيّين..

إنه الفقيه والمتكلّم والخطاط، إنه أبو الفنانين والحرفيين

«فاضل أحمد باشا»